رسالة ابن حزم في فضائل الأندلس وذكر رجالها
دراسة تأصيلية نصية

د. نزار مسند قبيلات **د. فاطمة محمد أمين العمري**
د. بسمة أحمد صدقي الدجاني
مركـــز اللغـــات / الجامعـــة الأردنيـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث

تحاول هذه الدراسة قراءة نص تراثي هو رسالة ابن حزم في فضائل أهل الأندلس، والوقوف على أبرز ملامحه الجمالية في محورين: الأول سطحي عابر؛ وذلك من خلال قراءة نقدية معهودة، والثاني داخلي سابر متعلق ببناء النص وأدواته. فقدعمل الباحثون على قراءة هذا النص التراثي ومحاورته على مرحلتين. وتوصلت الدراسة إلى مآل واحد، غير أن القراءة الثانية كشفت عن مدى التأثير الذي أوقعته رسالة الحسن بن محمد الربيب المقللة من شأن أندلس ابن حزم، وعن سرعة ردة الفعل لدى ابن حزم، ما أدى به إلى كتابة هذه الرسالة التي ظهرت فيها البنية الفاعلية في اللغة وبجلاء، وذلك في المستويين: التركيبي والخطابي.

ابن حزم:

هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسي الأصل، ثم الأندلسي القرطبي واليزيدي، مولى الأمير يزيد بن أبي سفيان بن حرب رضي الله عنه، ولد بقرطبة من بلاد الأندلس بالجانب الشرقي في ربض منية المغيرة.(١) وقيل ولد في عام أربعة وثمانين وثلاثمائة في منطقة تعرف بطالع العقرب(٢).

كان جده خلف بن معدان من أوائل من دخل الأندلس(٣) واستوطن قرية (منت ليشم) في إقليم الزاوية من عمل (اونبة) من كورة (رية)(٤). وأسرته كما قال ابن خاقان: "بنو حزم فتية

علم وأدب وثنية ومجد وحسب[٥]. وكان أبوه أحمد بن سعيد من وزراء الحاجب المنصور بن أبي عامر، وابنه المظفر من بعده. لذا نشأ ابن حزم نشأةَ المترفين المنعمين، تحيط به العناية من كل صوب، ولقد ترك لنا – رحمه الله – معلوماتٍ قيمة عن حياته، وعن مدى النعيم الذي كان يتقلب فيه.

وفي رسائله التي حققها إحسان عباس يقول ابن حزم في طوق الحمامة: " ثم انتقل أبي رحمه الله من دورنا المحدثة بالجانب الشرقي من قرطبة في ربض الزاهرة إلى دورنا القديمة في الجانب الغربي من قرطبة ببلاط مغيث"[٦].

إلا أن هذا النعيم لم يدم طويلاً؛ فقد جاءت الفتنة التي أطاحت بالدولة العامرية في سنة ٣٩٩هـ، والأحداث التي جرت بعدها، إذ حاصر البربر قرطبة وأجبروا أهلها ومعهم ابن حزم على الجلاء عنها، وذلك سنة ٤٠٤هـ.[٧] ثم عاد إليها في شوال من العام ٤٠٩هـ.[٨] وتذكر المصادر أن ابن حزم استقر في نهاية المطاف في مدينة إشبيلية حيث وجد المعتضد بن عباد الذي يحيط نفسه بأهل الفقه والدين، وبعدها انتقل إلى قرية (لبلة)؛ حيث درّس علمه وأدبه لتلاميذه هناك، حتى توفي في شعبان سنة ٤٥٦هـ.[٩].

شيوخه وتلاميذه:

تلقَّى ابن حزم العلم والحديث في سن مبكرة، إذ بدأ يأخذ العلم عن شيوخ كبار منهم: ابن الجسور راوية الحديث النبوي الشريف، وأحمد بن محمد بن الأموي الذي توفي في طاعون قرطبة. كما تلقَّى ابن حزم العلم عن النسابة الأديب أبي القاسم المصري "عبدالرحمن بن محمد بن أبي يزيد العتكي"[١٠].

رسالته في فضائل أهل الأندلس: البواعث والآراء النقدية:

يعرف أهل الأندلس (الشمالي) بكثرة علمائهم وشهرتهم وسمعتهم العلمية المعروفة، غير أنهم – أي أهل الأندلس– قصَّروا عن ذكر أندلسهم وتخليد أخبار علمائهم، وعن ذكر مآثرهم وفضل أهلهم وسير ملوكهم. فالدافع وراء هذه الرسالة الحزمية التي اهتمت "بالافتخار

بعلماء الأندلس"[١١] وهو ما عابه الحسن بن محمد بن أحمد بن الربيب– وهو قيرواني الأصل– على أهل الأندلس تقصيرهم عن تخليد أخبار علمائهم وذكر مآثرهم و فضائلهم. فكان ابن الربيب هذا قد كتب بذلك قبلاً إلى أبي المغيرة عبدالوهاب بن أحمد بن حزم (المتوفى سنة ٤٣٨هـ–١٠٤٦م)– وهو ابن عم ابن حزم أبي محمد؛ علي بن أحمد؛ صاحب الرسالة التي ندرسها هنا– رسالةً يعيب فيها ذلك التقصير وعدم العناية بأولئك العلماء والتوثيق لعلمهم، إذ اطلع ابن حزم على الرسالة التي بعثها القيرواني هذا لابن عمه التي تحمل في طياتها كما أسلفنا استهجانا وتقليلاً من شان مؤرخي الأندلس ومثقفيها.... أولئك الذين قصروا عن أفعال أندلسهم، فلم يعلوا من شأنها إذا ما قورن الأمر مع مقابليهم وأندادهم في الأندلس الشرقي (الجنوبي). فأثارت تلك الرسالة حميةَ الروح والعصبيةَ الأندلسيتين في نفس ابن حزم، وهو ما دفعه لكتابة هذه الرسالة مفتخراً بفضل الأندلس وبسمعة علمائها، ولا سيما علماء مدينة قرطبة.

وهذه الرسالة أوردها المقّري في الجزء الثاني من كتابه نفح الطيب، وقال عنها إحسان عباس في تتبعه لدوافع ابن حزم في تأليفها: إن ابن حزم كتبها بطلب من محمد بن عبدالله الفهري "يُمن الدولة"، ورئيس قلعة البونت من أعمال بلنسية. وذكر عباس أيضاً أن ابن حزم كتبها مخاطباً بها أبا بكر بن إسحاق صديقه الحميم ومرافقه أينما نفي أو ارتحل. ومهما اختلفت دوافع كتابة الرسالة وأسبابها، فإنها تبقى رسالةً تشير أبعادها التأويلية إلى فضل الأندلس ومجدها المتوج بأهلها وعلمائها، وبإنتاجهم الذي أتحفوا به حضارة العرب والمسلمين في بلاد العرق الأصفر إبان فترة حكهم لتلك البلاد.

يبدو أن رسالة ابن حزم شقيقة لرسالة الشقندي[١٢] في المضمون والمسوّغ، وإن اختلفتا في الشكل والصياغة. فقد جاءت رسالة الشقندي بعد رسالة ابن حزم موسومة بالعنوان ذاته، إذ كان سببها أيضا ينبع من قبيل التعصب للأندلس؛ بيئةً وعلماً ورفعة.

وقد انتقد ابن المعلم الطنجي أهل الأندلس، محاولاً أن يحط من قدر أهلها ومن مقدرتهم المعرفية والعلمية، مما لم يستوجب بعد تأريخ ذلك وتوثيقه، وما انفك أهل المشرق يرون في مشرقهم الثبات والأصل، وفي الأندلس ومغربيته وغربته الضعف والفرع.

ونكاد نجزم أن السبب العام والمشترك بين مؤلفي تلك الرسائل هو التشدد والانحياز دون غيره. فقد تكررت مثل هذه المناظرات أو الاختلافات أمام سادة العرب وأمرائهم في الأندلس وغيره، إذ يُطلب من كل طرف الإعداد لمناظرة يكتب كل منهما رسالة توثق وتؤكد أي الطرفين أعلى شاناً وأوسع علماً بعد أن تكون قد عرضت للأدلة والبراهين.

ويذكر صلاح الدين المنجد أن أهمية رسالة ابن حزم هذه تكمن في جوانب عدة نجملها في:

أولاً: أنها تعد تأريخاً لسيرة ابن حزم، فقد بينت في بعض جوانبها تنقلاته ورحلاته في الأندلس. وأشارت إلى معاصريه وأقرانه وشيوخه. كما ألقت مزيداً من الضوء على شخصيته وميوله.

ثانياً: أنها تؤرخ للفكر الأندلسي بما تضمَّنه من تراث أبدعه أهل الأندلس حتى أيام ابن حزم(١٣).

غير أنه يؤخذ على رسالة ابن حزم أنها أغفلت الكثير من النتاج الفكري الأندلسي كما يقول المنجد. وهو ما سوغ لابن سعيد الأندلسي(١٤) كتابة تذييلٍ على رسالة ابن حزم؛ حاول فيه أن يسد النقصَ من خلال ذكر روائع الفكر الأندلسي ومؤلفاته، مما جعل تذييل ابن سعيد أشبه بمسرد للكتب والمؤلفات الأندلسية، التي غفل عنها ابن حزم في رسالته أو سقطت منه.

وهنا نرى أنه يحق لأهل الأندلس العربي المسلم الافتخار والاعتزاز بوطنهم الذي قدَّم ما لا يقل عما قدمه المشرق العربي من علم وعلماء وتقدم للأمة. فلم تكن العصبية الأندلسية – تلك التي أشار إليها الدارسون قبلاً– إلا ردَّة فعلٍ طبيعية لنظرة الاستصغار تلك التي يلمحها أمثال الحسن بن محمد الربيب، وأبي يحيى بن المعلم الطنجي. على أن رسالة ابن حزم عنيت بالجانب العلمي لأهل الأندلس، في حين كانت رسالة الشقندي تتنبه إلى أمور متنوعة مثل؛ العمران والزراعة وآلات الحضارة، فضلا عن الجانب الشعري المقتطف بذوق فني عميق. فظاهرة الدفاع عن مكانة الأندلس وتفضيلها جاءت تعبيراً عن حس الأندلسي وتحمله لمسؤولية الدفاع فكراً عن موطنه .

وقد لاقت هذه الرسائل عناية المستشرقين واهتمامهم، وعناية دارسي الحقبة الأندلسية عموما؛ سواء أكانوا عرباً أم مستشرقين. فقد تُرجمت رسالة ابن حزم إلى الإنجليزية في أوائل القرن الماضي بعناية "باسكوال دغا بنقوس" وظهرت في لندن عام ١٧٣٤–١٧٤٠[١٥].

يقول مصطفى محمد السيوفي في كتابه "ملامح التجديد في النثر الأندلسي" خلال القرن الخامس الهجري: إن ابن حزم اختار لنفسه أسلوبا يخالف فيه الأساليب الأدبية التي كانت في عصره "هذا الأسلوب يخالف أعلى درجات الجودة من حيث اللفظ والتركيب والمعنى، فألفاظه المفردة منتقاة انتقاءً رائعاً، بحيث تكون كل كلمة متآخية مع أختها، يستسيغها جرسٌ حلوٌ يتفق مع موضوعها، ناهيك عن الأسلوب المتماسك الرصين البليغ، إذ يعد من قبيل السهل الممتنع الذي لا عوج فيه ولا اضطراب في موسيقاه المسترسلة، والذي ينساب بنغمات عذبة إلى النفس، وله مع هذا التكوين الرائع والنسج الصحيح معانٍ تتآخى، فتكون صوراً بيانية تغذي الخيال، فتشع بأخيلة تتفق مع موضوع القول، وتذهب بالفكر فيها كل مذهب"[١٦].

إن هذه الشهادة في أسلوب ابن حزم النثري تبين تميزه و تفرده على صعيد النثر الفني في الأندلس. فالناظر في مؤلّف ابن حزم ذائع الصيت "طوق الحمامة" يلمح حساً رائعاً وفنيةً رفيعة، لا سيما في حقل الحب الذي انسجم ومجال النثر الفني الحزمي وسيميائيته. يقول إحسان عباس عن نثر ابن حزم في طوق الحمامة: "إنه أكثر شاعرية وأصقل بالحيوية، وأقل حظاً من المحاكمات الذهنية"[١٧].

إن تلك الآراء النقدية التي سطّرها النقاد قد جعلت الباحثين يتبصرون في شأن هذا الرسالة؛ وفي النصية والأسلوب التي أقامها ابن حزم عليها، وهو ما دفعهم إلى تتبع الرسالة والنظر في بنيتها ونصيتِها.

وقبل الولوج في رسالة ابن حزم والوقوف على بعض ملامحها البنيوية ذاكرين قيمتها المضمونية التاريخية، لا بد من استمزاج بعض الآراء النقدية الأخرى في أسلوب ابن حزم الأدبي، والتي تركزت معظمها على رسالة طوق الحمامة، نظراً لأهميتها وشهرتها الدائمة، ولمضمونها السائد فضلاً عما أوردناه سابقا.

فالرجل متأثر بالمذهب الظاهري، الذي يأخذ بظاهر اللفظ أو التركيب لا بباطنه فهو يعكس الثقافة العقلية بمنطقها، ويورد بعض المصطلحات المتعلقة بفلسفة المنطق والعقل. "ويهتم بالعلل والمقدمات والنتائج؛ إذ تفرض ثقافته الدينية والفقهية نفسها على أسلوبه فترد في ثنايا مؤلفاته بعض مصطلحات هذه الثقافة[١٨]. فابن حزم داعية لمذهب الظاهرية الذي تسبب في تبسيط أساليبه النثرية. وكما أن أصول هذا المذهب تقوم على تحريم التقليد[١٩]. ولعل هذا التبسيط ظهر في الأسلوب المباشر الذي انتهجه ابن حزم في بناء رسالته هذه.

يقول زكريا إبراهيم إن أسلوب ابن حزم هو أسلوب مرسل، نكاد نجده في جميع نتاجه حيث الوضوح وَحسن الاستعمال ومتانة التركيب، بحيث تأتي الألفاظ بقدر المعاني لا تزيد ولا تنقص.[٢٠] فابن حزم يجمع بين الأسلوبين: العلمي والأدبي في نثره؛ كما هو – هنا– في رسالته التي تبين فضائل أهل الأندلس وعلمائهم؛ إذ قلّت الاستطرادات ورُتِّبت الأفكار والمعاني بأسلوب منطقي مستساغ.

نلحظ أن مجمل الآراء النقدية في رسالة ابن حزم هي آراء عامة؛ تخص الملامح الجمالية الكلاسيكية التي يتسم بها النثر العربي القديم بشكل عام. غير أننا هنا سنلجأ إلى مسالك نقدية حديثة تسبر أغوار هذه الرسالة، وتكشف عن المزيد من المقاصد الخاصة بكاتبها، إذ سندرس سطح النص وفق الرؤية الحديثة للنثر العربي.

المبنى العام للرسالة:

جاءت الرسالة بصيغة المسرود المباشر المنقول[٢١] وعلى لسان راوٍ يعلم باكتمال كل ما يود أن يصوغه متنقلاً بانتظام وبتتابع زمني غير مشتّت[٢٢]، إذ يضع السارد في مبنى رسالته هذه معرفته الكلية بالأندلس، مبرزاً صوته المتسيّد، وذلك وفق فقرات سردٍ تحمل مضامين ووقائع جيء بها من زمن سبق "حاضر السرد"، وهو ما يعرف بالسرد التابع؛ وهو السرد الذي يقوم فيه الراوي (السارد) بذكر ما جرى قبل زمن السرد؛ وذلك بأن يروي أحداثا ماضية بعد وقوعها.[٢٣] وبوجود سارد عليم (كلي المعرفة) يصبح للمتن مركزية نابعة من وجهة نظرٍ واحدة، منها يحدّد فحوى الخطاب ومراده، فهو – أي الباثُّ للنص– يعلو مبناه السردي؛ سعةً

واطلاعاً، واضعاً ما لديه من أحداث ومعارف في بناء رسالته، ومن جهته وزاوية نظره الخاصة، مجبراً القارئ على التقيد والالتزام بما يسرده.

لقد جاءت الرسالة بمتتاليات سردية متدفقةً، تحمل أخبار علماء الأندلس، وحاملةً إياها من ماض قريب إلى حاضر راكن ساكن؛ حتى بدء عملية التلقي. فاكتظت الرسالة بمعلوماتية مكثفة يبررها سرعة ردة الفعل لدى الباث(المنشئ) والرغبة في ملء ساحة الذهن عند المتلقي، وذلك بعد ملء بياض النصّ وتسويده. فاستخدمت صيغٌ تُفعِّلُ مطالع الفقرات، وتظهر الاستهلال عتبةً أولى تتناسق وعلوّ صوت السارد وزاوية نظره، وتسرّع عرض حواشيها، وتفند وتناقش بكثافة تكشف قيمة العلوم وسمعة العلماء الأندلسيين.

ففي مطلع كل فقرة يستخدم ابن حزم صيغاً لغوية محددة يستفتح بها وخلالها المقطع السردي، فيربط السابق من المقاطع باللاحق ضمن تكاملية السياق الدلالي وضمن محموله الخطابي المشار إليه؛ وهو فضل "الأندلس وشعاع المعرفة الذي يحمله علماؤها. ومن هذه الصيغ التي استخدمها السارد في افتتاحيته السردية:

- (نا) الجمعية: فيقول (علينا/ ضمنا المجلس الحافل/ مآثر بلدنا/ أما جهتنا/ لنا على مذهبنا/ ومنا/ ونحن إذ ذكرنا). إذ طغت مع (نا) الجمع (الأنا) الذات التي يراد منها الأندلس؛ إذ شكلت لابن حزم (أنا) أخرى.
- اسم الإشارة وضمير الشأن: (هذه بغداد..../ هو الكتاب الذي../ ومنها في اللغة....).

وقد خلت تلك المطالع السردية التي صُنفِتْ مضمونيا تبعاً للمواضيع من السجال الذي أشار إليه ابن حزم، وكان يبرز بسردٍ توثيقي دور العلماء في تفسير القرآن الكريم والتأليف في اللغة والتاريخ والشعر، وبراعة فلاسفتها وأطبائها وأهل الهندسة والجبر، وفي كل بحر من بحور العلوم الإنسانية والعلمية، إذ خلت من صيغة الفعل في اللغة كانطلاقه في السّرد، فعلى سبيل المثال لا يقول ابن حزم: ألف علماؤنا بل يقول: وإنما ذكرنا التأليف أو ومما ألف في الشعر... فيستخدم أسلوب التبعيض والجزء من كل؛ ما يجعل المتلقي أمام رغبة مُلحة في تلقي المزيد منها. فضلاً عن أن صيغ الأفعال وتزامنيتها تُعنى بالتراتبية وبالمحدود المعرفي، وهو ما لا يود ابن حزم أن يظهره ، بل على النقيض من ذلك، إذ يريد أن يظهر مدى كثرة علماء الأندلس

وتفوقهم، وهو ما لا يجعله قادراً على الاستشهاد والتدليل بكل ما تملكه الأندلس من علوم وعلماء؛ إذ تشي الصيغ التي استخدمها ابن حزم في مطالع السرد (الجمع والضمائر وأسماء الإشارة) بمزيدٍ لم يصرح به حتى زمن السرد هذا.

إن خلو البناء السردي للرسالة من استباقات واسترجاعات على صعيد البناء الزمني، عائدٌ إلى رغبةِ ابن حزم في الابتعاد عن ذكر تفاصيل وأحداث مرَّت، فهو بصدد أن يحشد كل ما يمكن أن يحشده مما يراه تفوقاً أندلسيا على غيره، إذ لم يلتفت ابن حزم لموضوع المناكفة مع نظيره أو إلى أسبابها المطولة، التي ذكرناها لكي لا يكون شخصيا في رؤيته أو متعصباً على غير فهم ودراية، بل انصرف مباشرة ومن سبيل الفقرة الأولى التي استهلها بالتحية والسلام على صديقه "أبو بكر بن إسحاق. "[٢٤] وبعدها جاء بمسوغ كتابة الرسالة مباشرة مبتعداً بذلك عن العتبات والاستهلالات المطولة التي عادة ما يدبجها المرسلون ويوشحون بها مطالع رسائلهم. فقال:

(لمحت عينايّ في تضاعيفِها درجاً فتأملته، فإذا فيه خطابٌ لبعض الكتبِ من مصاقبينا في الدار، أهل أفريقية. ثم مِمّن ضمته حضرةُ قيروانهم إلى رجلٍ أندلسي لم يعيّنه باسمه، ولا ذِكر نسبه. ويذكر له فيها أن علماءِ بلدِنا بالأندلس وإن كانوا على الربوةِ العليا من التمكّن بأفانين العلوم، وفي الغايةِ القصوى في التحكّمِ على وجوه المعارف، فإن هِمَمهُم قد قَصّرت عن تخليدِ مآثر بلدهم)[٢٥].

يجد المتلقي نفسه أمام جهة واحدة مُرسِلة، يتلقى منها وحسب، ولا يُترك له المجال لكي يفسر أو يقبل أو يرفض، فهو حبيس لمرجعيات السارد الفكرية والوضعية. ونستدل على ذلك من البناء السردي المكثف والمتكون من مقاطع سردية متزاحمة غير منفصلة، وهو ما لم يدع مجالاً لفضاءٍ بصري طليق يريح فيه المتلقي بصره من السواد الممتلئ بالمضامين المحشوة في بطون المتون السردية المتتالية، إذ كرّسَ ابن حزم اهتمامه في رسالته هذه على ركنين من أركان الخطاب، غاضّا النظر إلى حدٍ كبير عن الركن الأهم وهو المتلقي أو المخاطب.

الرسالة

الباث– البناء– المتلقي

لقد حركت العصبية الأندلسية ذات ابن حزم؛ فدفعته لتبيان مقصده ومأربه؛ ما جعله يُظهر عدم اكتراثه أو اهتمامه بهوية متلقي الرسالة وبمقدرته، منصرفاً إلى الافتخار والتباهي، فهو متأكدٌ وحسب من تفوق الأندلسيين على غيرهم. وهذه الرسالة وفق مرجعيات الدرس السّردي؛ وفي ضوء غياب طرف الخطاب الأهم، وربما يكون خلو الرسالة أيضا من أساليبَ سردية تدير تبادلية الخطاب وترفعه إلى مستويات عليا في التأويل: كالحوار والوصف وتعدد الشخصيات وتنوع الأحداث... ما هي إلا مستند تاريخي أو وثيقة يُرى فيها مرجعاً لأشهر علماء الأندلس وأبرزهم علما.

غير أن النصّ– أي نصّ أدبي– الذي يحيل إلى قرّاء أو سامعين لم يكن يفترض وجودَهم مسبّقا ولم يساهم في إنتاجهم، يصير عصيّاعلى القراءة والتلقي، أويصيرُ نصّا آخر مختلفا.[٢٦] إلا أننا نبرر ذاك لابن حزم المنحاز لطرفه هو لا لطرف ندٍّ لا يرجى رضاه واعترافه بأحقية قول ابن حزم الذي منحازا متطرفا طوال الرسالة لجانبه هو واقفا موقف المدافع عن علماء قرطبة وسمعتهم، واقعاً في دائرة تعصب أضيق من تلك التي دفعته لأن يدبج هذه الرسالة؛.... فهي مدينته التي يتوق إليها كلما نفي أو ابتعد عنها.

إنّ مسوغ الانتماء للأندلس أدَّى إلى مستند تاريخي أنتج بناء سردياً، ظهرت الذاتية فيه، مما أضعف دور الآخر؛ وهو هنا المتلقي أو من يفترض أنه سيستلم الرسالة. لكن المتلقي غُيِّب أمام تضخّم الذات واستعجالها، فطغى صوت ابن حزم السارد الصريح المتعالي الذي لم يترك للوصف طريقاً ينفذ إلى ذهن القارئ، راسماً صوراً جمالية وأبعاداً يتنقل خلالها المتلقي متمتعا ببهاء الأندلس.

يُسجَّل على رسالة ابن حزم ووفق قراءتنا الأولى في البناء السردي لسطح نص الرسالة، بعض المآخذ في إدارته السردية لها ومنها:

أولاً: بدا ابن حزم غير مكترث بقارئ الرسالة (المتلقي) سواء أكان يمن الدولة الفهري أو ابن الربيب. لا بل إنه بذلك قلَّل من شأنيهما ومن دور بلدهم، مُسلِّطاً الضوء على وطنه

الأندلس، فلم يدر في خلده أن الرسالة ستكون كتابا بل مصدرا تاريخيا يعود إليه كل من جال بخاطره ذكر علماء الأندلس، فاكتفى بتفنيد ما جاء في رسالة نظيره، وبشرح تتابعي خال من أي نهج تنسيقي ظاهر.

ثانيا: جاءت المقاطع السردية (الفقرات) كما أسلفنا متتالية متعاقبة؛ تدرك كل واحدة أختها، ولا يفصل بينها إلا مضمون جديد، أو الحاجة لذكر حقل آخر من حقول المعرفة أو من أخبار الأندلس. وهذا التتابع بحقيقته لم يدهش القارئ في المستوى الأول من مستويات القراءة بل أشعره بالملل، وبحرفية النقل التاريخي ورتابته فحسب. فقد كانت كتابته غير محفزة بالقدر الذي يجعل منها حقلا مفتوحا للتأويل.

ثالثاً: قلنا إن الرسالة تمثّل رد فعل طبيعي محرّكٍ بدوافع نفسيّة، وبانتماء حقيقي للوطن، إلا أن هذه العجلة والسرعة في فعل السرد أفقدت اللغة المسرودة بعض شاعريتها فاعتمدت على السجع وتوافق الفواصل، كأن يقول:

"وإني لما احتللت بك، وجالت يدي في مكنون كتبك. ومضمون دواوينك.أو يقول: "الحمد لله الموفق لعلمه، والهادي الى الشريعة الموصلة".

ما بين رسالة الشقندي التي تلت رسالة ابن حزم في الفخر بالأندلس (الجنوبي) فارق يتسع، فقد اقتطف الشقندي بذوقه وحسّه الفني الأندلسي أبياتاً من الشعر الأندلسي تعزز دليله، وتجعل لغة السرد في رسالته لغة مفعمة حسية رائعة، في حين كانت رسالة ابن حزم رسالة إخبارية مباشرة في المستوى الظاهر. وكأن ابن حزم متأثر حقاً بمذهبه الظاهري، وهو ما فرض القراءة السطحية للرسالة التي تخلو والبناء السطحي من لذة المعنى والتعاطي معه. فظهرت الرسالة مباشرة في الطرح وفي الشكل والدلالة، في حين لم يثرِ مستوى القراءة الأول فكر القارئ، ولم تدهشه بخطابها الرتيب، بل إنها لم تفضِ إلى فضاء يخلق مجالاً أرحب كما هي رحاب الأندلس ورياضها، في حال توافقنا على أن رسالة ابن حزم جنس أدبي آخر من أجناس الأدب العربي الذي عرفته الأندلس.

فالبحث سينفذ هنا إلى ما يعرف في النقد الحداثي إلى البنية التحتانية الخفية في رسالة ابن حزم، محاولاً التعمّق في التركيب البنائي من خلال مقاطع سردية متفرقة رأى الباحثون

أنها تمثّل الأسلوب العام لابن حزم وتمثّل جلّهُ، فسيسعى الباحثون هنا إلى جلاء أبعاد النص من مستوياته الداخلية (البناء اللغوي)، ومستنطقين النص من بنيته العميقة، فغاية النقد هو الكشف عن نوايا الكاتب وإماطة اللثام عمّا أخفي من أهداف، والكشف أيضا عما سكت عنه الناص في نصه ولم يفصح عنه.

ما يجعل قراءتنا النقدية التالية قراءةً تكشف عن جديد مخبوء في باطن النص، فالقراءة النقدية الحديثة باتت قادرة على إماطة اللثام عن النص العربي والكشف عن مستويات جديدة من التأويل ظلت مضمرة في باطن ذلك النص.

فما يضمره النسق الدلالي للرسالة؛ لا يزال مغموراً غير ظاهر، ويحتاج إلى أدوات إجرائية تحتمل التعمق في التركيب اللغوي للجملة والبناء بشكلٍ عام. وهو ما يجعلنا– تاليا– أمام مكونات ثقافية تنتجها الرؤى النقدية.

فالرّسالة نصٌ يتكون من جمل وتراكيب لغوية تحمل شفرات دلالية نصية، وبمدلولات باطنية ترتبط هيكلياً وفق مبدأ السطح والباطن / الظاهر والخفي؛ وذلك تبعًا لربط عمودي سطحه دالٌ وعمقه مدلول:

دال   سطح النص

مدلول   عمق النص

لذا فنحن بحاجة إلى الاعتماد على أدوات إجرائية حديثة؛ تظهر جماليات هذا النص التراثي وتبحث عن المسوغات الأسلوبية في مبناه اللغوي الخاص، وذلك للوصول إلى مبتغى الخطابية الحزمية، وتحليلها معتمدين على أسلوبية ابن حزم في نصه وعلى نوعية البعد الجمالي في نصه.

الثنائية اللغوية :

ثمة علاقة تربط الألفاظ بعضها ببعض؛ وهي علاقة المعنى في محورين :

- الثنائية التوافقية.
- الثنائية الفردية.

فلكل لفظة تركيب ندٌّ على الطرف المقابل، ولكل لفظة أيضًا لفظةٌ أخرى تجاورها معنوياً أو تركيبياً، وتتحد معها في المدلول. وتغدو علاقة الألفاظ مع بعضها علاقة تعتمد بشكل أساسي على الأسلوب والنسيج النصي الذي ارتبطت به " فالأسلوب يحدّد من زاوية علاقة الألفاظ بالأشياء، كما يحدد أيضًا من خلال روابط الألفاظ بعضها ببعض، وكذلك من خلال علاقة مجموع الألفاظ بجملة الجهاز اللغوي الذي تنزل فيه، فالأسلوب في نفسه دال يستند إلى نظام إبلاغي متصل بعلم دلالات السياق، أما مدلول ذلك الدال، فهو ما يحدث لدى القارئ من انفعالات جمالية تعجب إدراكه للرسالة ".(٢٧)

لقد أفاد ابن حزم من خاصية التقابل والتضاد التي تفضي إلى المفارقة وإلى والمواربة على صعيدي اللفظ والمعنى، وذلك ليبرز في إحدى فقرات الرسالة مدى بشاعة ذلك النكران لأهل أندلسه، وكيف أن بعض الظُلاّم استكبروا فوصفوا علماء الأندلس العربي المجيدين بأنهم إما سارقون أو منتحلون.

" ولا سيما أندلسنا فإنها خُصّت من حسد أهلِها للعالم الظاهر فيهم الماهرُ منهم.......

..... واستهجانه حسناتِه، وتتبعهم سَقطاته وعثراته ....

..... إن أجاد قالوا: سارق مغير منتحل مدّع، وإن توسطوا قالوا: غَث بارد وضَعيف ساقط"(٢٨)

تشير هذه المفارقة الموقفية(٢٩) والمصوغة لغوياً وفق مبدأ التضاد والتشاكل إلى مدى انقلاب المؤرخين العرب ونكرانهم لمركز علماء أندلس ابن حزم؛ فثمة مفارقة غير معقولة ونقض تام لفكرة أن أهل الأندلس لهم شهرة علماء المشرق، وهو ما جعل ابن حزم يعتمد على التقابل اللفظي بقصد المقارنة المفارِقة في التضمين والموقف، فيفهم القارئ المتعمق مدى العصبية

والمزاجية التي انتهجها مؤرخو عصره؛ فجاء هذا التقابل المتشاكل لفظيًا "كتفريغٍ لغوي صادق لمعاناة نفسية واقعية"[٣٠].

لقد اعتمد ابن حزم على ألفاظٍ تقود إلى معانٍ مختفية مرتدة على بعضها، وهي الظاهرة بجلاء في متن رسالته، وهو ما يجعلها تحفّز كلّاً من القارئ والناقد من بعده لمقاربة مقاصد النص ودلالة ألفاظه المتقابلة فيه " فالتقابل بين الدال والمدلول يثير نشاطًا لغويًا محفزاً "[٣١] لدى المتلقي، وهو ما استطاع ابن حزم بلوغه؛ فقد نجح من خلال التوافق في اللفظ والمعنى (التشاكل اللفظي) في الكشف عن مدى فجاعة الإقصاء والنكران الذي يواجهه علماء أندلس ابن حزم كما نجح في التضاد من قبل.

" ... ثم لمّا ضَمنا المجلسُ الحافلُ بأصنافِ الآداب والمشهدُ الآهل بأنواعِ العلوم، والقصر المعمور بأنواعِ الفضائل، والمنزل المحفوف بكل لطيفةٍ ..... من دقيقِ المعاني وجليل المعالي..."[٣٢]

نلحظ أن التقابل أو التضاد اللفظي يضفي جماليةً في التعبير، وذلك من باب التنويع الذي يضفيه، فقد اعتمد ابن حزم في الفقرة السابقة على ألفاظ متقابلة منسجمة مع بعضها في مقامٍ أولٍ ثم على جملٍ متقابلة في مقامٍ ثانٍ؛ لتتعاضد الألفاظ والجمل منتجةً دلالة خاصة بالسياق النصي العام للرسالة. وهنا يأتي تساؤل عن مسوغ اختيار هذه الألفاظ دون غيرها أو عن سبب الاستعانة بهذه التراكيب اللغوية المتقابلة أو المتضادة دون غيرها، لتأتي الإجابة متعلقةً بسياق الحال الإنساني الذي عايشه ابن حزم، وهو ما التمسناه له مسبقًا.

لقد كانت ردة الفعل عند ابن حزم حادة وسريعة، أبرزتها الثنائية الضدية في المدلول والتركيب اللفظي لنص الرسالة، عبر صياغة أسلوبية حزمية حازمة، فجُلُّ الألفاظ المنتقاة – لا سيما تلك التي تتسيد مطالع الفقرات – مرتبطة مدلوليًا بالحالة الشعورية المستنفرة؛ تلك التي سيطرت على ابن حزم وانعكست في طي رسالته.

(مَحط رحال الخانقين / يركبون ثبج البحر غزاةً / قرطبة مَسقط رُؤوسنا).

لقد كشف المحفز/ الدافع عند ابن حزم عن صلادة في التدبيج وعن أسلوبٍ متطابق والحال/ الموقف المستنفر الذي تعرض له ابن حزم، فجاء أسلوبه موجزاً من ناحية قصر الجمل

يحمل ثنائية لغوية متضادة في الدلالة تعكس في الآن نفسه مدى سرعة الرد والتحفز والخروج عن المألوف، بل إن الألفاظ المختارة لديه اتسمت بالانزياح الدلالي؛ إذ لم تكن محايدةً هي الأخرى، فقد نقلها ابن حزم من درجة الصفر في الدلالة إلى سياق لغوي مفضٍ إلى خطابٍ ثائر.

إن اختيار الألفاظ عند ابن حزم منتجٌ من ناحية تقريبه المشهد والحقيقة للمتلقي، وهو المقصود في آلية الخطاب الأدبي، فقد تشاكلت الألفاظ المنتقاة ألقا وأفضت إلى معانٍ أخرى أدهشت متلقيها ورسّخت من جانبها جودة وشهرة علماء أندلس ابن حزم.

في العمق اللغوي للرسالة الحزمية:

ليس هنالك خطاب يخلو من المساعي الإقناعية التي ترمي إلى استدراج الآخر للمصادقة على قضيته الجوهرية، على أنّ من الأساليب المعوَّل عليها فيه ما يتخذ سبيل التضامن والتفاعل والتقريب بين طرفي الخطاب بانفتاحه على المتلقي وانطوائه على دلالة جدلية وإياه، ومنها ما تغيب فيه الأساليب التي تذكي وتؤجج تبادلية الخطاب لتجعل منه خطابا مغلقا على ذاته، ينصرف فيه المخاطِب إلى حشد كل ما يمكنه حشده بطريقة إخبارية تقريرية دون أدنى التفات إلى موضوع المناكفة ونظيرَه، مبرزا (صوته المتسيّد وكأنه سارد عليم كلّي المعرفة). وهذا ما جنح إليه ابن حزم وغلب عليه أسلوبُه في محاورته متلقيه سواء أكان خاصا أو عاما؛ إذ لم يخلُ خطابه هذا من أن يرمي إلى إفحامه وإقامة الحجة على (خطله وفساد مُعتقده)، على أنّه آثر أن يظهر فيه وكأنه مفكر حامل لرؤية معينة يسعى لإرسائها محاولا تغييب متلقيه قدر الإمكان، وكأنه بذلك يترفع بخطابه عن أن يكون مسرحاً للتناحر والاصطراع، ومن ذلك:

أولا : نزوعه إلى أساليب الإخبار وتغليبه لها على أساليب الإنشاء؛ كون أولاها تفضي إلى الإثبات والتقرير منطلقا لاستدراج المتلقي وإخضاعه لمنطق الخطاب، إضافة إلى ما يضطلع به الخبر مما ليس في الإنشاء من القدرة على ترسّم صورة قارة تثري الجانب الوصفي التقريري في الخطاب. على أن ثانيتها تنتقل من مجرد دحض الرأي المخالف إلى محاكاة الآخر بانطوائها على دلالة جدلية معه، على أنّ العمل اللغوي المؤسس عليها محفوف بمحبطات كثيرة قد تعوق تحققه وتعطل تأثيره، ومن أجل أن لا يكون محتواه عرضه للفشل وعدم التحقق غَلب

التعبير بواسطة الخبر عوضا عن التعبير بالإنشاء؛ من حيث إنّ الخبر لا يُتصوّر وقوع خلافه، والإنشاء قد تقع مخالفته. وفيما يلي تفصيل يبين بعض الأساليب اللغوية في رسالة ابن حزم ومدلولاتها:

النفي (خبر):	يؤسِّس لكون القضية المطروحة من قبيل المسلمات التي لا تمارَى؛ إذ هو يعرض الأمر وكأنه تحقق وقُضي، وفي ذلك تقوية لحضوره في ذهن المتقبل على وجه من الثبوت الذي لا يخالطه شك، ومن شأن ذلك أن يكون أبلغ وأوكد في اقناعه.	١. "ما أذكر أني رأيت في أخبارها تأليفا غير المعرب عن أخبار المغرب، وحاشا تواليف محمد بن يوسف الوراق" ص٣. ٢. " وما أعلم في أخبار بغداد تأليفا غير كتاب أحمد بن أبي طاهر، وأما سائر التواريخ التي ألّفها أهلها فلم يخصوا بلدتهم بها دون سائر البلاد، ولا أعلم في أخبار البصرة غير كتاب عمر بن شبة، وكتاب لرجل من ولد الربيع بن زياد المنسوب إلى أبي سفيان في خطط البصرة وقطائعها، وكتابين لرجلين من أهلها يسمى أحدهما عبد القاهر كريزي النسب في صفاتها وذكر أسواقها ومحالها وشوارعها، ولا أعلم في أخبار الكوفة غير كتاب عمر بن شبة " ص٤. ٣. " وما رأيت لمالكي قط كتابا أنبل منه في جمع روايات المذهب وشرح مستغلقها وتفريع وجوهها " ص٧.

الحصر(خبر):	يؤسَّس على ملحظ (التبئير)، "وهو من البؤرة، ويفيد من الناحية الاصطلاحية في علم اللسان انحصار الكلام في معنى معين بإلقاء الأضواء على العنصر الأساسي فيه باعتباره مدار الكلام في الجملة، إذ هو يمثل المعلومة المركزية فيها "([٣٣]) ويشكّل موضع الجدل ومعقِد الاختلاف.	١." فإنه لا يفلت من هذه الحبائل ولا يتخلص من هذه النصب إلا الناهض الفائت والمطفف المستولي على الأمد" ص٥.
الاستفهام (إنشاء):	إنّ الغاية من كل استفهام في أصل وضعه قد لا تنحصر في "أن نفرض على المخاطب به إجابة محددة يمليها المقتضى الناشئ عن ذلك الاستفهام، ليتم به توجيه دقة الحوار الذي نخوضه معه الوجهة التي نريد" ([٣٤]). فإذا أسلمنا بأنّ القضية المتنازع عليها من قبيل المشهورات في عوالم المستفهمين ومما قرّ في عرفهم، فإن ذلك يقضي بأن قصد الباث منها يجاوز غرض تطلّبه إجابة بنعم أو لا عليها، بل إنهم "إنما سئلوا عنها ليوجبوها ويصادقوا عليها من تلقاء أنفسهم،	١." ومنها كتاب التمهيد لصاحبنا أبي عمر يوسف بن عبد البر– هو الآن بعد في الحياة لم يبلغ سن الشيخوخة– وهو كتاب لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله أصلا، فكيف أحسن منه؟؟؟ " ص٦. ٢." ولو لميكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن محمد بن دراج القسطلي لما تأخر عن شأو بشار بن برد وحبيب والمتنبي، فكيف ولنا معه جعفر ابن عثمان الحاجب وأحمد بن عبد الملك بن مروان وأغلب بن شعيب ومحمد بن

	حتى إذا ما حصلت المصادقة من قبلهم –وهي لا بد حاصلة– كان ذلك وسيلة للترقي في سلّم الإقناع"([٣٥]) بجوهر القضية محلّ الاستفهام، وكأنه لا يطمع في ذلك إلا إلى "الاستحواذ على وعي مخاطبيه وتغيير تصوراتهم بإرادتهم هم، ولا يتأتى له ذلك إلا إذا استطاع أن يخلق شعورا لدى مخاطبه بأنه طرف فاعل له رأيه وتوجهه، وأن لا فعل ولا تصرف دون مباركته، وإنّ ذلك لمما يتيح للمتكلم الانسحاب تاركا له تحديد الحكم"([٣٦]) على القضية موطن الاستفهام، ليكون بذا مبعث إقراره من لدنه، ذلك أنّ "الإقرار الحاصل من المخاطب بفضل الاستفهام سرعان ما يصبح في سياق الخطاب العام حجة على خطل رأيه وفساد مُعتقَده" ([٣٧]).	شخيص وأحمد بن فرج وعبد الملك بن سعيد المرادي وكل هؤلاء فحل يهاب جانبه وحصان ممسوح الغرة؟؟؟ " ص١١.
الشرط (إنشاء):	إنّ من ألحّ ما يطبع الشرط المنفتح على الآخر صراحة أن يؤخّر جوابُه، وأن لا يتبع فعله مباشرة؛ إذ إنّ ذلك يستتبع تطويلا	١."لما ضمّنا المجلس الحافل بأصناف الآداب، والمشهد الآهل بأنواع العلوم، والقصر المعمور بأنواع الفضائل، والمنزل المحفوف

لأفق انتظار المتقبل في تصوره ضروب إمكان ذلك الجواب التي ستزدحم في فكره كلما أطال عليه فيه، ولعلّ ذلك أمضى حجة وأبعد أثرا؛ إذ إنّ المخاطب بعد أن استُدرج استدراجا مطوّلا لتلقّي الجواب يكون على أهبة الاستعداد لأن يصادق على فحواه؛ كون ازدحام تلك الجمل المتتابعة مدعاة إلى التعظيم والغلو والمبالغة في تصوره، فلئن اهتدى إليه بنفسه وتصوّره كان ذلك الجواب مدعاة لتسليمه به، وإذعانه لفحواه، وأبلغ في ردعه وزجره عما يُكرَه منه.

على أنّ ميل ابن حزم إلى هذا المنزع ظهر في موضع واحد لم يتعدّاه إلى غيره، ينضاف إلى ذلك ما جنح إليه من تصديره بعض العبارات الشرطية بأسلوب (القسم)؛ فهو إذ يثبت القضية ويوجبها يقيم في الوقت نفسه الحجة على المخاطب ويلزمه بها، قال أبو القاسم القشيري فيما نقله عنه السيوطي: "إنّ الله ذكر القسم

بكل لطيفة وسيعة من دقيق المعاني وجليل المعالي قرارة المجد، ومحل السؤدد، ومحط رحال الخائفين، وملقى عصا التسيار عند الرئيس الأجل الشريف قديمه، وحسبه الرفيع حديثه، ومكتسبه الذي أجلّه عن كل خطة يشركه فيها من لا توازي قومته نومته، ولا ينال حضره هويناه، وأربأ به عن كل مرتبة يلحقه فيها من لا يسمو إلى المكارم سموه، ولا يدنو من المعالي دنوّه، ولا يعلو في حميد الخلال علوه، بل أكتفي من مدحه باسمه المشهور، وأجتزي من الإطالة في تقريظه بمنتماه المذكور، فحسبي بذينك العلمين دليلا على سعيه المشكور، وفضله المشهور، أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن قاسم صاحب البونت أطال الله بقاءه، وأدام اعتلاءه، ولا عطل الحامدين من تحليهم بحلاه، ولا أخلى الأيام من تزينها بعلاه، فرأيته أعزه الله تعالى حريصا على أن يجاوب هذا المخاطب، وراغبا في أن يبين له ما لعله قد رآه فنسي، أو بعد عنه

	لكمال الحجاة وتأكيدها؛ وذلك انّ الحكم يُفصل باثنين: إما بالشهادة وإما بالقسم، فذكر الله في كتابه النوعين حتى لا تبقى لهم حجة" ([38]).	فخفي، فتناولت الجواب المذكور بعد أن بلغني أنّ ذلك المخاطب قد مات –رحمنا الله تعالى وإياه ..." (تأخير جواب الشرط) ص١. ٢." وهو وإن كان صغير الجرم قليل عدد الورق يزيد على المائتين زيادة يسيرة فعظيم الفائدة " (تأخير جواب الشرط) ص١٠. ٣." وأما الجبال وخراسان وطبرستان وجرجان وكرمان وسجستان والري والسند وأرمينية وأذربيجان وتلك الممالك الكثيرة الضخمة فلا أعلم في شيء منها تأليفا قصد به أخبار ملوك تلك النواحي وعلمائها وشعرائها وأطبائها ..." (تأخير جواب الشرط) ص٤. ٤. " والله لو بذل لي الدنيا على ذلك ما فعلت ولا استجزت الكذب لأني لم أجمعه له خاصة بل لكل طالب" (تصدير الشرط بالقسم) ص٨. ٥. "ولعمري لئن كان كتاب أبي العباس أكثر نحوا وخبرا فإن كتاب أبي علي أكثر لغة وشعرا" (تصدير الشرط بالقسم) ص٨.

ثانيا: المراوحة بين الجمل الاسمية والفعلية:

لعلّ ما نزع إليه ابن حزم من الانصراف عن محاورة الآخر ومساجلته أفضى به إلى استخدام السرد التوثيقي في مطالع الفقرات خاصة من مثل: " بعد التفصيل الذي ليس هذا موضعه"، "وعلى ذلك فقد جُمع ما ظنه الظان غير مجموع " ولا غرو إذ إنّ ما ينهض بهذا المنزع دون سواه ما غلب عليها من حضور واف للجمل الاسمية مقابل غياب الفعلية؛ إذ إنّ مما قرّ في أذهان القدامى مما بين صنفي الجملة تينك من فروق أنهما عدا عن كونهما متمايزتن في البنية النحوية، فإنّ بينهما من التمايزات– حال اعتماد المقاييس الدلالية والبلاغية– أدّت ببعضهم إلى عدّ الجملة الفعلية واقعة في أسفل درجات الخطاب، وأنّها تمثل درجة الصّفر من الكلام من حيث القيمة الإخبارية، ومن ذلك قول الزركشي:"إذا قصدوا مُجرّد الإخبار أتَوا بالجملة الفعلية، وإذا اكّدوا فبالاسمية، ثم بها وباللام".[٣٩]

وإنّ ذلك يقود بالضرورة إلى أن الجملة الفعلية دونَ الاسمية من حيث طاقة الإخبار وقوة الإثبات، فهما مختلفتان بالرتبة في درجة السّلم الإخباري، وإلى هذا ألمح بنفيست بما قوله:" تهدف الجملة الاسميّة إلى الإقناع من خلال تعبيرها عن حقيقة عامّة ... فهي لا تَنقل مُعطىً حدثيا، وإنما هي تقرّر حُكما لازمنيّا دائما، يفعل في النفوس فعلَ حُجّةِ السّلطة"[٤٠]؛ أي أن المراد منها إقامة الحجة الثابتة المؤكدة بضروب التوكيد.

ويرصد الدارسون مسوغات أخرى كثيرة تكمن خلف هذا الميل والجنوح إلى الجملة الاسمية في الخطاب جملة[٤١]، والرأيُ عندنا أنّ محور ذلك العدول أنّى تعددت الاجتهادات كامنٌ في أنه أوفى في التعبير عن الغرض المروم بشيء من التوكيد، وهذا هو الرأي الراجح لدى ابن الأثير في قوله: "وإنما يُعْدَلُ عَن أحَدِ الخِطابَيْنِ (يقصد الفعلية) إلى الآخرَ (يقصد الاسمية) لِضَرْبٍ مِنَ التأكيد والمُبالغة"[٤٢].

وبناء عليه، تؤسَّس الأدوار الإقناعية للعدول عن الفعلية إلى الاسمية مطلقا على محصلتين: مدار أولاهما على ما تَطبع به الاسمية العبارة من منزع الديمومة والثبوت والقدرة على التعبير عن الحقائق العامة والمبادئ القارة، وثانيتهما على ما يفيده التعبير بها من مبالغة وتوكيد وإلحاح على المعنى مما لا تتوافر عليه الجملة المُصاغة بالفعلية، وإنّ ذلك إنما يؤهلها

أكثر لأن تكون مستندا حجاجيا مؤكدا، وأداة تبريرية مركزة وحجة دامغة تعضد مَن رام إقناع غيره. ولعلّ من أظهر ما يترجم ذلك عدم وقوفنا على نماذج ابتدر بها ابن حزم مطالع فقراته السردية في غضون رسالته بالجمل الفعلية؛ ولعلّ ذلك إنما يسلبها شيئا من طاقتها في التبكيت والإقناع، ويقوّض دعائم نفاذيتها في خطاب أسّس في جوهره على الإقناع.

ثالثا: مستوى زمن الفعل:

يهدف الانصراف عن الفعل الماضي إلى المضارع عامة استحضارَه في الذهن حتى كأنه مُشاهَد ساعة الإخبار، وهذا عِماد ما ذهب إليه ابنُ القيّم في قوله: "اعلمْ أنّ الفعل المضارع إذا أتِيَ به في حالة الإخبار عن وُجودٍ كانَ ذلك أبلغَ من الإخبار بالفعل الماضي؛ وذلك لأنّ الفعل المضارع يوضّح الحال التي يقع فيها ويَستحضرُ تلك الصّورة، حتى كأن السامعَ يسمعُها ويشاهدُها، وليس ذلك في الفعل الماضي"([43]).

أما خلاف ذلك من العدول عن المضارع إلى الماضي فلا مسوّغ له سوى أنه ينهض بوظيفة اعتبار الشيء مدار العدول كأنه تحقق وقضي أمرُه تأكيدا على صحة تحققه ووقوعه وتقوية لحضوره في ذهن المتلقي وطرحا لمحتواه على أنه من قبيل الحقائق والمسلمات التي لا تمارى، ونفيا له عن أن يكون موطن نقاش أو جدال. وهذا ما لا يؤديه الفعل المضارع، بل لا ينهض به سوى الماضي، ففائدة ذلك تكمن في " أنّ الفعل الماضي إذا أخبِر به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعدُ، كان ذلك أبلغُ وأوكدُ في تحقيق الفعل وإيجاده؛ لأنّ الفعل الماضي يُعطي من المعنى أنّه قد كان ووُجِد "([44]).

لقد ذكرنا سالفاً أن ثمة قراءتين في عملية التلقي: قراءة القارئ، وهي تلك القراءة العابرة التي لا تكشف بُنية النص العميقة؛ وتكتفي بإحداث مسح جمالي لسطح النص، من خلال مجرى الزمن الكلاسيكي؛ فمن الماضي إلى المستقبل، مع الالتفات لبعض المحسنات البديعية والبلاغية التي يدركها العربي الفطن، وأما القراءة الأخرى فهي قراءة الناقد السابرة، التي تنفذ إلى عمق النص وتتناوله من جديد، ومن خلفيته؛ "إنها قراءة يخلقها النص بذاته وليس كاتبه، بمعنى أن النص يفتح فضاءً أو لا يفتح "([45]).

الخلاصة:

خلص البحث إلى أن ابن حزم في رسالته هذه اتخذ موقف الضد والتصدي لطرف آخر أراد النيل من شهرة موطنه، وهو ما ظهر جليًا في النسق اللغوي المتضاد، الذي كشف عنه ابن حزم في بناء رسالته، والباحثون هنا يؤكدون الحاجة لمواجهة رسالة الشقندي تلك والوقوف على أبرز ملامحها الأسلوبية والجمالية، وهو ما سيفرد الباحثون له بحثا خاصا، فالمقارنة بين الرسالتين ستكون غنية وثريّة على كافة المستويات الشكلية والمضمونية.

وخلص الباحثون أيضًا إلى أن الناقد اليوم بأمس الحاجة إلى أدوات نقدية غير تقليدية تسانده في الكشف على جمالية النص العربي التراثي؛ فقد تساعده في أن يعزز تأويل النص وتأكيده، أو في الكشف عما سكت عنه العربي سالفا، أو الناقد من قبل، مع التأكيد هنا على أن كلتا القراءتين (التاريخية الجمالية والنصية العميقة) قد كشفتا عن فحوى واحد، وسبب واحد لكتابة هذه الرسالة، إلا أن استخدام بنية الجملة الاسمية، وكثرة ورودها في نص الرسالة، هو ما جعلنا نؤكد قوة ردة الفعل المنتجة لجمل قصيرة وفاعلة تحتمل في طياتها البناء الثنائي المساهم في إيجاد مقارنة أرادها ابن حزم في الرّد على الإقصاء الذي مارسه الأندلسيون في الشرق تجاه (الأندلس الشمالي). وكأن ابن حزم في رسالته يخوض معركة وجوده كونه يدافع عن بلاده، مدركين في الآن ذاته أن الدافع النفسي المتحيّز ومنهج ابن حزم الظاهري أخرجا الرسالة خاليةً من تلك الأساليب النثرية والتقانات السردية المعهودة ، فقد قامت معاني الرسالة ودلالاتها واكتملت في نفس ابن حزم أكثر من قيامها واكتمالها في نفس المتلقي و إن كان ابن الربيب نفسه، "إذ إن أساس التعلق بين الكلم هو قيام المعنى في النفس"[٤٦]أولا وهي نفس ابن حزم كاتب الرسالة التي وظِفت معانيهاودلالاتها لتنتفض بوجه من يتهمونه وأهله بالتقصير والضعف.

إذا كانت الرسالة فاعلة في هذه الجمل، تحاول التمرد وكسر طغيان الأصل على الفرع، وعليه جاءت رسالة ابن حزم على شكل خروج على هذه الممارسة " من خلال تأسيس الانبثاق الفردي واختراقه للآخر النّد، من أجل تغيير نظام الفهم وبنية العلاقات الاجتماعية

والاقتصادية السائدة، وتدمير سلطة أصحاب المصلحة والتعصب، ومن أجل تفكيكٍ عملي لكل ما هو قائم سلطوي". (٤٧)

هوامش البحث:

(١) الحميدي، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق محمد الطنجي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص: ٢٩٠-١٩٣.

(٢) الذهبي، سيرة أعلام النبلاء. تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة. بيروت ط١. ١٩٨٤.اينظر المغرب في حلى المغرب لابن سعيد،حققه وعلق عليه: شوقي ضيف، دار المعارف، ١٩٨١(١-٣٥٤)، وكتاب طه الحاجري، ابن حزم صورة أندلسية،دار النهضة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٢.

(٣) انظر المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي.

(٤) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، دار إحياء التراث (٢٣٩/١٢).

(٥) ابن خاقان، الفتح بن محمد بن عبيد الله. مطمح الأنفس ومسرح التأنس. تحقيق محمد علي الشوابكة مؤسسة الرسالة. ط١(٢٠٢)، ١٤٠٣-١٩٨٣.

(٦) عباس، إحسان. رسائل ابن حزم الأندلسي. تحقيق : إحسان عباس. العربية للدراسات والنشر. ط٢(١٩٨٧)(٢٥١/١)

(٧) رسائل ابن حزم. تحقيق إحسان عباس، ط١، (٢٥١/١-٢٥٢) من الطوق.

(٨) المصدر نفسه.

(٩) انظر ياقوت الحموي، معجم الأدباء (٢٤٠/١٢) والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام (١٦٩/١).

(١٠) رسائل ابن حزم:تحقيق إحسان عباس، ينظر المزيد عن حياة ابن حزم العلمية وشيوخه.

(١١)انظر: فضائل الأندلس وأهلها، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، ط١٩٦٨.١ ، من المقدمة.

(١٢) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب"، الشيخ أحمد بن المقّري التلمساني، (تحقيق: إحسان عباس)، دارصادر،بيروت،المجلد ٣،ص ٢٢٢– ٢٢٣.

وهو أبو الوليد إسماعيل بن محمد، وشقندة المنسوب إليها قرية مطلة على نهر قرطبة مجاورة لها من جهة الجنوب. قال ابن سعيد: وهو ممّن كان بين هو بين والدِيصحبة أكيدة، ومجالسات أنسٍ عديدة، ومزاور اتتصل، ومحاضرات لا تكاد تنفصل، وانتفعتُ مجالسته، وله رسالة في تفضيل الأندلس، يعارض بها أبا يحيى في تفضيل بَرّ العُدوة أورد فيها من المحاسن ما يشهد له بلطافة المنزِع وعذوبة المَشرَع، وكان جامع الفنون من العلوم الحديثة والقديمة، مات بإشبيلية سنة ٦٢٩.

(١٣)انظر تحقيق :صلاح الدين المنجد، فضائل الأندلس وأهلها، ص:٣-٥.

(١٤) هو أبو بكر محد بن اسحاق، صديق ابن حزم والمتنقل معه في الأندلس والمعتقل معه،انظر الحميدي، جذوة المقتبس، (٤٢).

(١٥)انظر تحقيق:المنجد، صلاح الدين. فضائل الأندلس وأهلها، المقدمة.

(١٦)السيوفي، مصطفى، ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٥–١٤٨٥م، ص:٥٢٢.

(١٧)انظر رسائل ابن حزم الأندلسي،تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠، (٨١/١).

(١٨) السيوفي، مصطفى، ملامح التجديد في النثر الأندلسي. ص(٥٢٣)، وللمزيد حول المذهب الظاهري و ابن حزم ينظر: المذهب الظاهري والمنطق عند ابن حزم، المكتبة العالمية، طرابلس، شارع الجمهورية.

(١٩)المهري، محمد بن مسلم،ابن حزم أديباً ناثراً رسالة جامعية، الجامعة الأردنية، ٢٠١٠، ص٨٤.

(٢٠)إبراهيم، زكريا، ابن حزم الأندلسي المفكر الظاهري الموسوعي، الدار المصرية للتأليف والترجمة،القاهرة، ص٧٦.

(٢١)انظر جيرار جينيت، خطاب الحكاية، البحث في المنهج، الأزدي، ط٢. القاهرة، للإطلاع تنوع صيغ المسرود وفق زوايا النظر.

(٢٢)انظر يمنى العيد (الراوي والموقع والشكل)، بحث في السرد الروائي، ط١،-ص:٨٤-٩٥.

(٢٣)انظر سمير المرزوقي وجميل شاكر. مدخل إلى نظرية القصة، تحليلاً وتطبيقا، بغداد، ١٩٨٦، ص٩٧.

(٢٤)انظر جذرة المقتبس للحميدي: ٤٢ وإحسان عباس. تاريخ الأدب الأندلسي في عصر سيادة قرطبة، بيروت، ط٧، ١٩٨٦، ص:٣٤٧.

(٢٥)المقّري. نفح الطيب (٢:٣٦٢).

(٢٦) انظرإمبرتوإيكو: القارئفيالحكايةالتعاضدالتأويليفيالنصوصالحكائية، (ترجمة: أنطوانأبوزيد)،المركزالثقافيالعربي،المغرب،ط١، ١٩٩٧،ص٦٧، ٧٣.

(٢٧) المسدّي، عبد السلام، النقد والحداثة. ط١، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٣، ص ٥٩.

(٢٨) المقري،نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج٢، ص ١٦٦.

(٢٩) انظر دي. سي. ميوك: المفارقة وصفاتها، ترجمة: عبدالواحد لؤلؤة. دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، ط١. ١٩٨٧، ص:١٣ وما بعدها.

(٣٠) العيد، محمد، النقد والإبداع الأدبي، ط١، دار الفكر للدراسات، القاهرة، ١٩٨٩، ص١٦.

(٣١) الراية، فائز، علم الدلالة العربي، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٥، ص٧٧.

(٣٢) نفح الطيب، ص ١٥٨

(٣٣)عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، جامعة منوبة، تونس، ج١، ٢٠٠١، ص٤٨٨.

(٣٤)المرجع نفسه، نقلا عن: **Ducrot et Auscombre: L'argumentationdans la langue, p30**

(٣٥)الزركشي، محمد بن بهدر بن عبد الله (ت: ٧٩٤هـ): البرهان في علوم القرآن، دار الكتاب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢، ج٢، ص٣٣١.

(٣٦)محمد سالم ولد الأمين: مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، عالم الفكر مج٢٨ عدد٣ مارس.٢٠٠٠ ص٧٨.

(٣٧)عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، ج١، ص٤٩٢.

(٣٨)السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر الخضيري (ت: ٩١١هـ): الإتقان في علوم القرآن، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٩٣، ج٢، ص١٣٣.

(٣٩) بدر الدين الزركشي: البرهان في علوم القرآن.

(٤٠) المرجع ١٩٩، من صولة ص٥٤٣.

(٤١)انظر مثلا: عبد الله صولة: الحجاج في القرآن، ص٤٩٧- ٥٠٤.

(٤٢) ابن الأثير: ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد الجزري توفي٦٣٧ هـ : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانه.دار نهضة مصر- القاهرة.١٩٩٣ ج٢، ص٥١.

(٤٣)ابن القيم الجوزية: شمس الدين أبو عبدالله،محمد بن أبي بكر توفي ٧٥٢هـ: كتاب الفوائد (المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان)، تصحيح محمد بدر الدين النعساني،مطبعة السعادة،القاهرة،١٩٠٩، ص١٤٨.

(٤٤) ابن الأثير: المثل السائر، ج٢، ص١٥- ١٦.

(٤٥) انظر عز الدين المناصرة، وآخرون: ندوة العلوم الإنسانية والقراءات، مجلة كتابات معاصرة، بيروت، مج.٤، ع١ – أيلول ١٩٩٢.

ص: ١١

(٤٦)شحاته، محمد سعد، العلاقات النحوية وتشكيل الصورة الشعرية، الهيئة المصرية لقصور الثقافة، يوليو ٢٠٠٣، ص١٠٢.

(٤٧) أبوديب، كمال، الرؤى المقنعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي، البنية والرؤية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦،ص ٥٨.

المصادر والمراجع

- إبراهيم، زكريا، ابن حزم الأندلسي المفكر الظاهري الموسوعي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة.
- ابن الأثير، ضياء الدين ابو الفتح نصر الله بن محمد الجزري،المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانه،دار نهضة مصر،القاهرة، ١٩٩٣.
- ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس،دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٩.
- ابن حزم الأندلسي،رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠.
- ابن حزم وابن سعيد والشقندي، فضائل الأندلس وأهلها،تحقيق: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، ط١ .١٩٦٨.
- ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، حققه وعلق عليه شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة،١٩٨١.

- ابن خاقان، الفتح بن محمد بن عبيد الله. مطمح الأنفس ومسرح التأنس. تحقيق محمد علي الشوابكة
- مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٣.
- ابن القيم الجوزية، شمس الدين ابو عبدالله،كتاب الفوائد (المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان)،
- تصحيح محمد بدر الدين النعساني،مطبعة السعادة،القاهرة،١٩٠٩.
- أبوديب، كمال، الرؤى المقنعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي، البنية والرؤية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦.
- إيكو،إمبرتو، القارئ في الحكاية التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية،ترجمة: أنطوان أبو زيد، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط١، ١٩٩٧.
- جينيت،جيرار، خطاب الحكاية، البحث في المنهج، الأزدي، ط٢، القاهرة.
- الحاجري، طه، ابن حزم صورة أندلسية، دار النهضة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٢.
- الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، دار إحياء التراث.
- الحميدي، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق محمد الطنجي، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- الذهبي، سيرة أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٤.
- الراية، فائز، علم الدلالة العربي، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٥.
- الزركشي، محمد بن بهدر بن عبد الله،البرهان في علوم القرآن، دار الكتاب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر الخضيري، الإتقان في علوم القرآن، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٩٣.
- السيوفي، مصطفى، ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٥–١٩٨٥م.
- شحاته، محمد سعد، العلاقات النحوية وتشكيل الصورة الشعرية، الهيئة المصرية لقصور الثقافة، يوليو ٢٠٠٣.
- صولة، عبد الله، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، جامعة منوبة، تونس، ج١، ٢٠٠١.
- عباس، إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي في عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة، بيروت، ط١٩٨٥،٧.
- العيد، محمد، النقد والإبداع الأدبي، ط١، دار الفكر للدراسات، القاهرة، ١٩٨٩.
- العيد،يمنى، الراوي والموقع والشكل؛ بحث في السرد الروائي، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨٦، ط١.
- الفيثوري، عبد القادر، المذهب الظاهري والمنطق عند ابن حزم،المكتبة العالمية، طرابلس، ٢٠٠٦.
- المرزوقي، سمير، وجميل شاكر، مدخل إلى نظرية القصة، تحليلاً وتطبيقا، بغداد ١٩٨٦.
- المسدّي، عبد السلام، النقد والحداثة، ط١، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٣.
- المقري، أحمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
- المناصرة، عز الدين، وآخرون، ندوة العلوم الإنسانية والقراءات، مجلة كتابات معاصرة، بيروت، مج٤، ع١، أيلول ١٩٩٢.
- المهري، محمد بن مسلم،ابن حزم أديباً ناثراً، رسالة جامعية، الجامعة الأردنية، ٢٠١٠.

- ميوك، دي سي، المفارقة وصفاتها، ترجمة: عبدالواحد لؤلؤة، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، ط١. ١٩٨٧.
- ولدالأمين،محمد سالم،مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، عالم الفكر مج٢٨، عدد٣، مارس، ٢٠٠٠.

THE MESSAGE OF IBN HAZM ON THE VIRTUES OF ANDALUSIA AND THE REPUTE OF ITS MEN:
An Original Textual Study

ABSTRACT

This study attempts to read a traditional manuscript namely the Message of Ibn Hazm on the Virtues of the People of Andalusia, and to shed a light on its major aesthetic aspects from two perspectives: the first, to go over the text rather superficially and hastily; the second, to read it thoroughly and delve down beneath the surface. This thorough and detailed reading unveils the extent to which *Al-Hasan Bin Mohammad Al-Rabeeb's* letter had degraded and humiliated *Ibn Hazm's* Andalusia, and, moreover, disclosed how swift the latter’s response was, which led him to write this letter that is obviously rich in verbal sentences on both levels; the structural and the oratorical.